الدّنيا والهوى والشيطان والنّفس
"أسْحَر" من هاروت وماروت
تمكين
TAMKEEN
KNO SCHOOLS
EMPOWERING HUMANITY
360
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY
KNO SMART SCHOOLING

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس مجلس إدارة مجموعة تمكين الاستثمارية

رئيس مجلس أمناء سلسلة مدارس كينو الخاصة

الدّنيا والهوى والشيطان والنّفس "أَسْحَر" من هاروت وماروت

في رحلة الإنسان نحو اللّه، ثمّة مربّع مظلم يحاصره من كلّ جانب، يُطبق عليه كلّما غفل أو تراخى، فها هي أربعة أركان تحيط به وتشدّه نحو الظلام؛ النّفس الأمّارة، والهوى المتقلّب، والشيطان الوسواس، والدنيا الفاتنة، وإنْ كانت كلّها خطرة، ولكنّ الدنّيا هي الأسحر والأمكر، بل هي أشدّ فتنة من هاروت وماروت اللذيْن أُرسلا ليختبرا البشر بالسّحر..

فها هي الحياة تتزيّن لنا بألف حُلّة وحُلّة، تتلوّن كالحرباء، وتتقلّب كالبحر بين هدوء ساحر وعاصفة جارفة، تحاول أنْ تغرينا ببريق زائف، وتَعِدُنا بسعادة موهومة، وتُلهينا بملذّات عابرة، دون حاجة منها إلى تعاويذ أو طلاسم، إذ إنّ سحرها كامن في بساطتها المخادعة، وفي قدرتها على جعلك تنسى الآخرة وأنت تركض خلف سراب الأمل.

فهي قد تُسكرك دون خمر، وتُعميك دون ظلام، وتأسرك دون قيود، وتجعل الغنيّ يظنّ أنّ ماله خالد، والقويّ يحسب أنّ قوّته أبديّة، والشابّ يعتقد أنّ عمره لن ينتهي، فهي الفتنة الكبرى التي لا يفلت من سحرها إلاّ من هداه اللّه وأيقظ قلبه وبصيرته.

فالدّنيا قد ضاهت بسحرها وفتنتها سحر الملكين هاروت وماروت، ففي بابل القديمة نزل ملكان ليعلّما الناس السحر اختباراً وفتنة، وكانا يُحذّران من ذلك بصراحة:﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾(البقرة: 102)، لكنّ الدنيا لا تُحذّر، ولا تُعلن عن نفسها فتنة، فهي تهمس في آذاننا: "عش لحظتك، واستمتع بوقتك، غداً تفكّر في الآخرة"، فأيّ السّحرين أخطر؟ وأيّهما أعمق أثراً في القلوب؟

لقد كان سحر هاروت وماروت واضحاً كالشّمس في وضح النّهار، يعرفه طالبوه ويدركون أنّهم يخوضون في الكفر والضلال، وكان التّحذير مقدّماً والطريق معلوم المخاطر، وفي المقابل فإنّ سحر الدّنيا يأتي متخفياًّ في ثوب المشروعيّة والأماني البريئة، ويتسلّل إلى القلب كما يتسلّل الضّوء من شقّ الباب، ولا تشعر به حتّى يملأ الغرفة بأكملها، فهي لن تقول لك "اكفر باللّه"، بل تقول " أنت تستحقّ هذا المنصب، تستحقّ هذا المال، ولا بأس في تأجيل الصّلاة قليلاً، فاللّه غفور رحيم"، وهكذا تبدأ رحلة الانزلاق الخفيّ، إذ تصبح الدنيا هي المحور وتغدو الآخرة مجرّد فكرة مؤجّلة في ركن بعيد من الوعي، وفي ذلك يقول الحقّ سبحانه:﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ

حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران: 14)، فتعمينا الدنيا بتزيين متقن، وسحر لطيف يجعلنا نظنّ أنّ السّعادة كلّها في هذه الشّهوات، وأنّ الحياة لا معنى لها بدونها...

فالدنيا ساحرة متعدّدة الأقنعة، لا تأتي بوجه واحد بل بألف وجه، تعرف كيف تخاطب كلّ قلب بلغته الخاصّة...

- فللفقير تظهر في صورة المال الوفير الذي سيحل كلّ مشاكله..
- وللغنيّ تظهر في صورة المزيد من المال والنّفوذ والتوسّع...
- وللشّاب تأتي بثوب الشّهوات والملذّات...
- وللكهل بثوب حبّ البقاء والتّشبث بالحياة...
- وللعالم تُغريه بالشّهرة والأتباع....
- وللعابد تتسلّل إليه من باب الرّياء والعُجب....

فهي تملك مفاتيح كلّ القلوب، تعرف نقاط ضعفنا جميعاً، وتضرب على الوتر الحساس في كلّ نفس، وحتّى الطّموحات المشروعة والأهداف النّبيلة قد تتحوّل إلى فتنة حين تستحوذ على القلب وتُنسيه الغاية الأسمى، فكم من طالب علم غرق في التّحصيل الدنيويّ ونسي العلم الذي يرفع صاحبه إلى اللّه، وكم من عامل مجتهد صار العمل معبوده والنجاح المهنيّ غايته، فلم يعد يجد وقتاً لربّه ولا لنفسه ولا لأهله، وفيهم يقول اللّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المنافقون: 9)...

هذا وقد كان لسحر هاروت وماروت بداية ونهاية، أمّا سحر الدّنيا فهو رحلة العمر بأكمله، فلا ينقطع ولا يتوقّف، فمنذ أنْ يفتح الإنسان عينيه على الحياة سيجدها تعرض عليه إغراءاتها المتجدّدة...

- ففي الطفولة تسحره باللعب واللهو..
- وفي الشباب تسحره بالشّهوات والطموحات..
- وفي الكهولة تسحره بالمال والنّفوذ..

- ·وعند الشيخوخة تسحره بحبّ البقاء والخوف من الرحيل..

فهي ماهرة في تغيير أسلحتها وتنويع أساليبها، فتعرف متى تضحك في وجهك ومتى تعبس، والأخطر أنّها تعلّمت كيف تُلبس الباطل ثوب الحق، وكيف تجعل المعصية تبدو حاجة، والحرام ضرورة، والتفريط في الدين مرونة وواقعيّة....

فكم من إنسان خطّط أنْ يجمع المال سنوات قليلة ومن ثمّ يتفرّغ للعبادة، فإذا بالسنوات تمضي والقلب يتعلّق أكثر والنّفس تطلب المزيد، إلى أنْ يأتيه الموت على غفلة وهو لا يزال يؤجّل ويخطّط، وكم من شابّ قال "سأستمتع بشبابي ثمّ أتوب"، فإذا بالشيب يعلو رأسه والقلب قد قسا وابتعد عن اللّه...

فهذه هي الدنيا كركن من أركان المربّع المظلّم، التي قد حذّرنا منها النبيّ ﷺ حين كان يقول دبر كلّ صلاة متعوّذاً منها: "اللهمّ إنّي أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أنْ أردّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدّنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر"...

ففي داخل كلّ واحد منّا تدور معركة صامتة لا تتوقّف أبداً، معركة بين نفسين تتنازعان السيادة على هذا الجسد..

فترى نفساً مطمئنة، تعرف ربّها وتأنس بذكره، وتهون في عينها المصائب لأنّها توقن أنّ وراءها حكمة، وترضى بالقضاء لأنّها تثق بقضاء اللّه، فهذه النّفس تجد راحتها في السجود، وسعادتها في الطاعة، ولذّتها في القرب من اللّه، وفي ذلك يقول سبحانه:﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾(الفجر: 27-28)...

وتجد نفساً أمّارة بالسّوء، لا تشبع ولا تكتفي، تجري وراء كلّ بريق وتلهث خلف كلّ سراب، فتُغريك بالمزيد دائماً، تهمس لك أنّ السّعادة في الأفق القادم، في الترقية التالية، في السيارة الأحدث، في البيت الأكبر، في الحساب البنكيّ الأضخم، وكلّما حققت هدفاً، صنعت لك هدفاً آخر، وكلّما نلت شيئاً، أشعرتك بنقصانه، وفيها يقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾(يوسف: 53)...

فالمشكلة الفعليّة تكمن في أنّنا حين نستسلم للنّفس الأمّارة ونتّبع هواها، نظنّ أنّنا نحسن صنعاً، وأنّنا نعيش الحياة ونستمتع بها، لكنّ الحقيقة أنّنا نغرق في بحر لا ساحل له، فيبدأ غرقنا بخطوة صغيرة، ثمّ أخرى، ثمّ ما نلبث أنْ نجد أنفسنا في الأعماق ولا ندري كيف وصلنا...

- ·فترانا نبدأ بتأجيل صلاة الفجر، ومن ثمّ التّهاون في الصلوات الأخرى، ومن ثمّ ترك النوافل، والتقصير في الواجبات، وهكذا حتّى يصبح الدين غريباً عن حياتنا..
- ·وترانا نبدأ بنظرة محرمة، ثمّ أخرى، فحديث فعلاقة، وهكذا حتّى تجد نفسك في متاهة من المعاصي...
- ·وترانا نبدأ بحبّ المال، ثمّ الحرص الشديد على جمعه، ثمّ التفريط في الحلال والحرام لأجله، وهكذا حتى يصبح المال هو إلهنا المعبود من دون اللّٰه...

ومهما كان السيناريو فالنهاية دائماً واحدة؛

قلب فارغ، روح معذّبة، وحياة لا طعم لها رغم كلّ ما فيها من مظاهر النّجاح والثّراء...

فالخيار بين أيدينا، ولا أحد يستطيع أنْ يختار عنّا...

فإمّا أنْ نُقوّي النّفس المطمئنة بالذّكر والصلاة وقراءة القرآن والتقرّب إلى اللّٰه، فتصبح هي القائدة وتصبح النفس الأمّارة تابعة مقيّدة..

وإمّا أنْ نترك الحبل على الغارب للنفس الأمّارة فتسوقنا إلى حيث تشاء وتغرقنا في بحر الشهوات...

فهنا وجب أنْ نختار لأنفسنا ما يبنيها لا ما يهلكها، ما يرفعها لا ما يحطّها، ووجب أنْ نعطي أرواحنا حقّها من السّكينة قبل أنْ تسلبك الأماني وتُرحّلك الشهوات إلى حيث لا عودة...

فلنتذكّر أنّ الموت قادم لا محالة، وأنّ كلّ ما جمعته سيبقى خلفك، ولن يرافقك إلاّ عملك، فقد قال اللّه تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: 19]....

فكم من إنسان كان يملك الملايين، ثم جاءه الموت فإذا بالملايين لا تساوي عنده قيد أنملة..

وكم من صاحب منصب رفيع، أصبح في قبره وحيداً لا ينفعه منصبه ولا جاهه ولا أتباعه..

فالسعادة الحقيقيّة ليست في كثرة الحطام والعرض الزائل، فكم من غنيّ تعيس وكم من فقير سعيد، ولكنّ السعادة في طمأنينة القلب، في السّكون العجيب الذي يملأ الصدر حين نشعر أنّنا على صلة بخالقنا، حين نعلم أنّ اللّه راضٍ عنّا، وأنّنا نسير على الطريق المستقيم، وفي ذلك يقول اللّه عزّ وجلّ:﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل: 97)..

فالحياة الطيبة التي وعدها اللّه، لا تتحقّق بالمال ولا بالمنصب ولا بالشهرة، إنّما بالإيمان والعمل الصالح، والسعادة في أنْ نرضى بما قسم اللّه لنا، فلا نحسد أحداً ولا نحقد على أحد، ولا نشعر بالنقص مهما كانت ظروفنا، فالسعادة في أنْ نستقيم على أمر اللّه، فننام نوم قرير العين مطمئن القلب، ولا نخاف من الغد ولا نندم على الأمس، لأنّنا نعلم أنّ الأمر كلّه بيد اللّه، وأنّ ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا..

وهنا يأتي دور الترياق الأقوى لسحر الدنيا، ألا وهو التذكّر الدائم للموت والآخرة، فرغم مرارة ذاك الدّواء المرّ الذي يكرهه الناس إلاّ أنّه يشفي القلوب من كلّ أدوائها، وحين نتذكّر أنّ هذه الدنيا مجرّد أيام معدودة وأنّ الموت قد يأتي في أيّة لحظة، تهون في عيوننا كلّ زخارفها ويسقط قناعها الزائف، فقد قال النبيّ ﷺ: "أكثروا من ذكر هادم اللذات"، فإذا ذكرت الموت في ضيق وسّعه عليك، وإذا ذكرته في سعة ضيّقها عليك، لأنّه يُذكّرك بحقيقة الأمور ويُعيد ترتيب أولوياتك...

وإذا أردنا أنْ نحصّن أنفسنا من سحر الدنيا فعلينا...

بالصّلاة والذّكر، فهما الحبل الذي يربطنا باللّٰه ولا يدعنا نغرق في بحر الدنيا.. فالصلاة تلك اللحظات الخمس التي نقف فيها بين يدي اللّٰه، نشكو إليه همّنا ونطلب منه عونه وهدايته ورحمته، ونستمدّ منه القوّة والثبات.... والذّكر ذلك النور الذي ينير القلب ويطرد منه وساوس الشيطان وإغراءات الدنيا، وعنه يقول اللّٰه سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد: 28)، فإذا ما اطمأنّ القلب بذكر اللّٰه، لم يعد يحتاج إلى كلّ زخارف الدنيا ليشعر بالسعادة، بل يجد سعادته في قربه من اللّٰه....

والإكثار من التفكّر في عيوب الدنيا ونواقصها، فهي وإنْ بدت جميلة فهي إلى زوال، منغّصة بالأكدار، لا يصفو فيها عيش ولا يدوم فيها حال، فإنْ كنّا اليوم أصحّاء وأحياء، فغداً قد نكون مرضى أو أموات..وإنْ كنّا اليوم أغنياء، فغداً قد نفتقر، فنحن في دار تقلّب وتغيّر، من جعلها همّه خاب وخسر، فعنها يقول اللّٰه عزّ وجلّ:﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾(الحديد: 20)، فهذا هو حال الدنيا؛ خضرة تُعجب الناظرين، ثمّ اصفرار، ثمّ حطام لا قيمة له....

وبعد،

فإنّ سحر الدّنيا قويّ عتيد، لكنّ سلاحنا أقوى منه إنْ أحسنّا استخدامه، وهو الإيمان باللّٰه واليقين بلقائه، والتعلّق بالآخرة والزهد في الدنيا، والمحاسبة اليوميّة للنّفس والتوبة من الذّنوب، والصّبر على البلاء والشّكر في الرّخاء، فهذا سلاح لا يُقهر، والنّفس التي تتسلّح به تستطيع أنْ تصمد أمام كلّ إغراءات الدّنيا وتنتصر عليها، لكنّه يحتاج إلى تدريب مستمرّ ومجاهدة دائمة...

فلنختر أنْ نكون من أهل النفس المطمئنة، من الذين يعيشون في الدّنيا ولا تعيش الدّنيا في قلوبهم، الذين يستخدمون الدنيا وسيلة للآخرة ولا يجعلونها غاية في حدّ ذاتها، ولنكن ممّن قال اللّٰه فيهم:﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾(النّور: 38)، فنكون ممّن نعيش في الدنيا بجسده، ولكنّ قلوبنا معلّقة بالآخرة، نعمل للدّنيا بما يصلح آخرتنا، ونترك من الدنيا ما يفسد آخرتنا...